الفصل 26

الأجواء الودودة لطائرة نقل المجرمين

كان صديقي فيلدز يقول لي ممازحًا إنَّني أُمثِّل دور بطلة في إحدى روايات روبرت لودلم المثيرة عن الجاسوسية، فقد كان كل حدث في قضيتي يشتمل على تحول مروع في الحبكة يزداد خطورة مع مرور الوقت.

وفجأةً، ومثل صباح يوم ربيعي جميل، أُبلغت أنَّهم سينقلونني من سجن كارسويل.

جاء الحارس، وأطل برأسه من باب الزنزانة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، ثم قال: «هيا يا ليندا ور، ابدئي بجزم أشيائك، ستتركين هذا المكان، ستغادرين مساء الغد».

أعتقد أنَّني صرخت بصوت عالٍ؛ لأنَّ السجينات الأخريات ركضن من الممر، وجئن ليسمعن الأخبار، كان ذلك يوم الرابع والعشرين من شهر إبريل عام 2006م، كان فرحي غامرًا لا يُصدَّق، فها أنا ذا سأغادر هذا المكان بعد قضاء سبعة أشهر ونصف شهر في هذا السجن في انتهاك صارخ للقانون [501]؛ لأنَّ وزارة العدل أَعَدَّت هذه المكيدة حتى لا تعقد محاكمة أستطيع فيها كشف الحقائق، وبالرغم من هذه المعاناة كلها فإنَّني طرت من الفرح في ذلك اليوم.

«أنا عائدة إلى بيتي، أنا عائدة إلى بيتي»، قلت ذلك، وأخذت أرقص في أنحاء الزنزانة.

«اسمعي يا ليندا ور: غدًا مساءً ستخرج حافلة مليئة بالسجينات لنقلهن إلى مدينة أوكلاهوما، أما أنت فستسافرين على متن طائرة (كون إير) إلى نيويورك».

«على طائرة (كون إير)! لا بُدَّ من وجود خطأ ما، فأنا أعيش في ميريلاند».

«لن تعودي إلى البيت يا ليندا ور، إنَّهم يرسلونك إلى مركز الإصلاح في مانهاتن، وسوف تظلين هناك حتى موعد المحاكمة».

يا إلهي! إنَّهم مصممون على القضاء عليَّ (قلت لنفسي)، لكنَّني لم أَدْرِ في تلك اللحظة عمق ضغينتهم. «هل سأظل في السجن؟ أنا لا أفهم. من المفترض أن يُطلَق سراحي بعد التقييم، لقد تحدثت إلى المحامي أمسِ، فلماذا لم يخبرني أنَّهم سيُقدِّمونني إلى المحاكمة؟ كيف لا يعلم المحامي أنَّهم سينقلونني من هنا؟».

«لا أدري»، هز الحارس رأسه، وأضاف: «لكنَّك ستتركين هذا المكان يا سوزان، هذا شيء جيد، أليس كذلك؟ سيقول القاضي شيئًا ما قبل إطلاق سراحك، هذا كل شيء، اهدئي».

«أجل أجل، لا بُدَّ أن يكون الأمر هكذا، لقد قدَّم عمي حلًّا مقترحًا إلى المحكمة، وقد اضطر إلى فعل ذلك؛ لأنَّ المحامي الغبي لم يُفكِّر في هذا الحل».

«ربما تكون الجلسة من أجل ذلك، هذا أمر جيد في الأحوال كلها. احزمي أشياءك، فأنت ستغادرين كارسويل، افرحي».

تجمَّعت السجينات حولي، وكان رأيهن واحدًا: «إذا كانوا سيخرجونك من هنا يا سوزان، فإنَّك لن تعودي إليه، لقد انتهى كل شيء، لقد اعتنى بك عمك».

لا أستطيع أن أحصي عدد المرَّات التي تمنين فيها أن يكون لهن عم مثل عمي.

«ستعودين إلى البيت. ولكن، عليك أن تتوقفي في نيويورك أولًا».

بالرغم من كل خيبة الأمل المؤقتة فقد شعرت بإثارة شديدة، ولم أشعر بمثل لحظات السعادة هذه في حياتي، لكنَّ المحامي لم يكن متحمسًا عندما هاتفني قائلًا: «لقد دعا القاضي إلى عقد جلسة استماع يا سوزان. كنت تريدين هذا، أليس كذلك؟ حسنًا، سيكون لك ذلك. وهذا هو ما جعلنا نرسلك إلى مركز الإصلاح».

تنهدت بعمق، وهززت رأسي أسفًا، فها نحن نعود إلى المربع الأول بعدما أمضيت سبعة أشهر في السجن من أجل لا شيء.

كان العم تيد قد حذَّرني من أن لا فائدة من الغضب، فاستمعت إلى نصيحته، وأخذت أُركِّز على شيء واحد؛ هو أن أعود إلى البيت، أخذت أُتمتم بيني وبين نفسي، وكظمت غيظي. كان العم تيد محقًّا في كل ما فعله؛ فعلى الأقل، سيعرف القاضي موكاسي الحقيقة، ولن تبقى أي علامات استفهام، سيسمع الحقيقة بنفسه مثلما سمعها مكتب التحقيقات الفيدرالي، ومكتب النائب العام، وموظفو سجن كارسويل، والعم تيد، عندئذٍ، لا يمكن لأحد أن يدَّعي أنَّني اختلقت هذه القصة.

تصورت أنَّ المحكمة ستعيد تجديد (تفعيل) كفالتي إلى حين انعقاد المحاكمة؛ فقد سلَّمت نفسي إلى السجن طواعيةً ما يعني أنَّني لا أُفكِّر في الهرب، فكَّرت مرَّةً أخرى في الأشهر الضائعة، ثم تذكَّرت وجه العم تيد وهو يقول لي: «حافظي على تركيزك، إنَّ ما أوصلك إلى هنا ليس بأهمية ما ستفعلينه لاحقًا، علينا أن نخرج من هذا المأزق يا صغيرتي».

جعلني ذلك أشعر بشيء من الطمأنينة لأنَّ لديَّ مثل هذا المستشار القانوني.

«حسنًا، سنستدعي الشهود لنثبت أنَّ روايتك صحيحة، وهذا سيضع حدًّا لقذارة الطب النفسي، وسيسمع القاضي موكاسي ليعرف أنَّ التهمة كانت مجرد هُراء».

ثم تذكَّرت الدكتور ريتشارد فيوز وهو يحرك إصبعه مثل البندول، قائلًا لي: «إنَّ كل حالة، وكل مواجهة تعطيك سلاحًا أو أداةً لتدافعي بها عن نفسك، وعليك أن تستخدميها عندما يتهددك أي شيء».

حسنًا، إذن، لنعقد جلسة الاستماع. والحقيقة أنَّني كنت سأشعر بالسعادة لو أنَّ المدعي العام أوفى بعهده وأسقط التهم، مَن الذي يمكن أن يلومني في ذلك؟ أما عند انعقاد الجلسة، وبعد تأكيد الشهود روايتي، فسنطالب بإسقاط التهم بأنفسنا، ويظل الأمر بيد القاضي، لكنَّ هذا التطور منحنا فرصة جديدة لتصحيح الضرر الذي أحدثه تقرير الدكتور دروب الذي استهان بقيمة شهودي، أضف إلى ذلك أنَّ وزارة العدل أخذت ثأرها مني؛ ولذلك فإنَّ جلسة

الاستماع التي تسبق المحاكمة ستكون لصالح الجميع، وقد تُقنع المحكمة ببراءتي، وترفض الدعوى.

ناهيك عن السعادة التي سأشعر بها عندما أُثبت أنَّ مكتب التحقيقات الفيدرالي ومكتب المدعي العام كانا يعرفان أنَّني كنت أقول الحقيقة، وأنَّهما يخدعان القاضي موكاسي، والفضل في ذلك يعود إلى قانون الباتريوت.

تذكَّرت، وأنا في دوَّامة الأفكار هذه ما قالته لي أمي في يوم ما: «وفري عواطفك ليوم ثأرك».

«لا أدري إن كنا بحاجة إلى هؤلاء الشهود» (أخذ سام تالكين يتذمر).

«ما الذي تقوله؟ بالتأكيد نحن بحاجة إليهم».

كان تالكين المسكين يشعر بالسخط، ولم يعلم أنَّني سأطرده عندما أعود إلى البيت.

«سنتحدث عن ذلك عندما تصلين إلى هنا». كانت هذه طريقته ليقول لي إنَّ المشكلة لم تنتهِ بعدُ.

«اسمعي! هذه الجلسة لا علاقة لها بتأهيلك؛ إنَّها تتعلق بالتخدير القسري».

«ما الذي تقوله بحق السماء؟ جلسة استماع عن التخدير القسري! هل هم مجانين؟».

سقط قلبي بين ضلوعي عندما قال لي ذلك، فقد أدركت الآن لماذا تردد تالكين في إبلاغي بذلك من قبلُ.

«كلا، هذا غير معقول. إنَّهم... ».

قلت له كلمات بذيئة كثيرة من تلك المفردات التي تتعلمها وأنت في السجن، وقد قال لي فيلدز عند عودتي إلى البيت: إنَّني أشتم مثل القراصنة.

«لكنَّ القانون يكفل حقي في جلسة استماع لحسم موضوع أهليتي، وأنا أرفض التنازل عن هذا الحق، إنَّ لي الحق في استدعاء الشهود للرد على الأسئلة التي أثارتها هذه التقييمات النفسانية الغبية [502]، وهذا ما أنوي فعله تحديدًا».

همس تالكين على الهاتف، قائلًا: «حسنًا، لقد قلت لهم إنَّنا لا نحتاج إلى ذلك»، وأضاف: «فأنا لم أعرف أنَّ المدعي العام سيطلبهم».

«ماذا؟ ما الذي لم تعرفه؟».

كان هذا هو (الإنهاء مع التحامل الشديد) في أقسى صوره، وقد ظل هذا المحامي يقع في المصيدة كل مرَّة؛ لأنَّه كان يرفض الاستماع إليَّ، أو إلى العم تيد، لإيمانه بصدقهم، لكنَّه كان يكتشف خطأه مرَّةً تلو الأخرى.

لو كان الأمر يخصه شخصيًّا ما اكترثت لذلك، ولكنَّه كان يتلاعب بحريتي. وقد شككت أنَّ تالكين كان يخشى أن تسمع المحكمة كيف اضطر العم تيد إلى إجراء مقابلات مع الشهود، وكيف استطاع أن يتحقق من صدق روايتي بكل سهولة [503]، وهذا سيفضح زيف الصعوبة التي زعمها تالكين بخصوص تحديد أمكنة وجود هؤلاء الشهود.

«لقد وافقت على بيع حقوقي؟ ولكن، اسمع. سأبعث برسالة إلى القاضي موكاسي اليوم، وسأطالب باحترام حقوقي كما يضمنها الدستور، سنتصل بالشهود، وسيحضرون، سنكون مستعدين، وأنا هنا لا أمزح، هذا شيء تتعلمه من وجودك في السجن، لقد كان لديَّ الوقت الكافي لأقرأ كتب القانون، ستنعقد جلسة الاستماع، ولا يعنيني ما قلته للقاضي موكاسي، أنت غير مخوَّل بانتهاك حقوقي، سيحضر بارك غادفري يوم المحاكمة ليشهد أنَّني حذَّرته من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وسيبلغ القاضي موكاسي أنَّه أخبر مكتب التحقيقات الفيدرالي بكل ما قلته له قبل سنة، كلهم يعرفون الحقيقة، وكلهم كانوا يكذبون على القاضي موكاسي، يوجد اسم لكل هذا، هو اليمين الكاذبة، وهذا يُعَد جريمة، ولو كنت القاضي لغضبت جدًّا من هذا الخداع».

قلت ذلك بغضب وأنا آخذة بنصيحة فيوز: «إنَّ كل حالة، وكل مواجهة تعطيك سلاحًا أو أداةً لتدافعي بها عن نفسك، وعليك أن تستخدميها عندما يتهددك أي شيء».

كانت تلك أفضل نصيحة لذلك اليوم.

حسنًا، إذن، سأخرج من كارسويل، وسأقابل القاضي، ولن تفصلنا عن بعضنا أي مسافة، سأنظر في عينيه مباشرةً لأقول كل شيء.

سأقول له كيف يمكنني المشاركة في إعداد إستراتيجية دفاع قانونية وأنا على بُعْد (1600) ميل من المحامي.

حسنًا، إنَّ نقلي إلى نيويورك سيكون نعمةً من الله، وقد أقسمت أنَّني لن أعود إلى تكساس مرَّةً أخرى، وإذا أراد أحد من أصدقائي الرائعين أن يراني، فيمكنه أن يأتي إلى ميريلاند.

كان مشهد الخروج من سجن كارسويل في تلك الليلة سرياليًّا، فقد بقينا مستيقظات حتى الساعة الرابعة صباحًا، وانطلقت بنا الحافلة في الظلام في رحلة طولها (200) ميل. كان الجو احتفاليًّا ومُؤثِّرًا؛ فقد قضت بعض السجينات سنوات خلف تلك الأسلاك الشائكة، فانحنين على الأرض يُقبِّلنها، ويشكرن الله.

والمفاجئ أنَّ مركز العبور الخاص بالسجن كان داخل مطار مدينة أوكلاهوما في منطقة منفصلة لها مدرجها الخاص، وقد بدا لي أنَّه يستطيع استيعاب ثلاث مئة امرأة في وقت واحد.

كان منظره مثل مهجع طائرات ضخم، ولم تكن فيه نوافذ، بل زنازين حجز واسعة تكفي أربعين أو خمسين شخصًا، وكان في كل زنزانة حمامان مكشوفان من دون مقعد أو مناديل تنظيف؛ بعد عملية الفرز أخذونا إلى غرفة واسعة خلف الأبواب المغلقة، فيها طاولات لتناول الطعام، ومصبغة. وحين بدؤوا عملية الفرز أخذوا ينادون علينا واحدةً تلو الأخرى إلى خارج زنزانة الحجز، حيث كان الحراس يتحققون من سجلاتنا.

عندما نادوني اكتشفت أنَّ إدارة سجن كارسويل لعبت تلك اللعبة القذرة مرَّةً أخرى؛ إذ أوصت بوضعي في زنزانة الحجز الانفرادي في أثناء عملية النقل.

ما يُحمد لحراس السجن أنَّهم قالوا لي إنَّ تلك الزنزانة لا تليق بامرأة، وإنَّ طلب سجن كارسويل لا معنى له؛ فسجلي نظيف، في حين توجد بعض النساء العنيفات اللواتي لم يطلب سجن كارسويل وضعهن في الحجز الانفرادي.

وأخيرًا، قرروا تجاهل ذلك الطلب، ولكنَّني فهمت دافع إدارة السجن فورًا؛ إذ لم يكن لذلك الطلب أي علاقة بالمشكلات السلوكية.

لا تنسوا، فمثلما شاركت في تحقيقات الحادي عشر من سبتمبر فقد شاركت أيضًا في التحقيقات الخاصة بتفجيرات أوكلاهوما، وقد اشتكيت من أنَّ وزارة العدل كانت تتستر على المعلومات الاستخباراتية من العراق التي تُثبِت وجود مؤامرة أوسع في هجوم أوكلاهوما؛ إذ قال العراق إنَّه يمتلك دليلًا على تورط جهات شرق أوسطية في الهجوم، بما في ذلك السجلات المالية لقيادات تنظيم القاعدة.

وقد تَبيَّن وجود دليل ظرفي على أنَّ تيري نيكولز (المتهم الثاني في تفجير أوكلاهوما) كان قد اجتمع برمزي يوسف (العقل المدبر للهجوم على مركز التجارة العالمي عام 1993م) عندما كانا يترددان على الجامعة نفسها في الفلبين، وقد استخدم المفجرون شاحنات محملة بالسماد.

لقد أرادت إدارة سجن كارسويل من وراء وضعي في زنزانة العزل الانفرادي أن تمنعني من التحدث إلى المساجين أو الحراس في مدينة أوكلاهوما؛ حتى لا يسمعوا ما قد أقوله عن هذه التفجيرات، خاصةً أنَّ الحراس ربما يعرفون بعض عائلات الضحايا، فتنتشر القصة الحقيقية عن التستر الحكومي.

وعلى كلٍّ، فإنَّ زنزانة الحجز الانفرادي ليست مكانًا سيئًا بالنسبة إلى النساء فحسب، بل لأي سجين آخر؛ لأنَّها تمثل عقوبة قاسية، وقد فكَّرت فيما يمكن أن تلفِّقه لي إدارة سجن كارسويل بعد وصولي إلى نيويورك.

يمكنكم أن تتصوروا هذا المشهد المحزن المضحك وأنا أقف مقيَّدة اليدين والقدمين، مرتديةً لباس السجن. كنت على وشك الصعود إلى طائرة (كون إير) المُخصَّصة لنقل المجرمين من مدينة أوكلاهوما – حيث شاركت في التحقيقات التي أعقبت التفجيرات فيها– إلى نيويورك، التي وجهت منها تحذيرات من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وأول هجوم على مركز التجارة العالمي عام 1993م.

وكأنَّ هذه المفارقة لم تكن كافيةً، فقد كانت المحكمة تبعد نحو كيلومتر واحد عن موقع مركز التجارة العالمي الذي كان المَعْلم البارز في مدينة نيويورك.

وبانتظار المثول أمام المحكمة، فإنَّهم سيحجزونني في مركز الإصلاح؛ وهو المكان الذي احتُجز فيه رمزي يوسف والمتهمون الآخرون بانتظار محاكمتهم في قضية تفجيرات عام 1993م، وهي السنة التي بدأت فيها عملي وسيطًا سريًّا للاستخبارات الأمريكية.

ومثل حلقة أحداث تراجيديا إغريقية، فقد دارت معظم خبراتي الحياتية المعقدة حول مركز التجارة العالمي من البداية إلى النهاية، لقد وهبت حياتي كلها لهذا العمل، وضحيت بحياتي الشخصية من أجله، ومع الإثارة كلها المرافقة لهذا العمل لم أكن أسعى وراء الشهرة، وإنَّما كنت أحتفل بانتصاراتي مع عدد قليل من الأشخاص الذين عرفوا قيمة العمل الذي أقوم به، خاصةً دور الوساطة السرية مع العراق وليبيا، ولا أُبالغ إذا قلت إنَّ فريقي قام بعمل رائع، ولكن انظروا كيف كافأتني أمريكا على ذلك.

لم أكن مسافرةً في سيارة فخمة لحضور احتفال موشى ببساط أحمر وورد، ولن يعطوني مفتاح مدينة نيويورك تكريمًا لي، ولن أسافر بالطائرة في مقصورة الدرجة الأُولى، ولن أنزل في فندق خمس نجوم، لكنَّني سأسافر مقيَّدة في طائرة نقل المجرمين، سأسافر مع عتاة المجرمين الذين لم يروا امرأة منذ سنوات.

ولأنَّني كنت مقيَّدةً؛ فقد كان أحد الحراس يرافقني إلى الحمام، ويسحب بنطالي ثم يرفعه ثانيةً عندما أقضي حاجتي.

لماذا يفعلون بي ذلك؟ لقد اتهموني أنَّني عميلة ليتسنى للسياسيين في الكونغرس أن يتفاخروا بنجاحاتهم في مكافحة الإرهاب وحماية الأمن القومي، وقد حرموني من المثول أمام المحكمة حتى لا يعرف سكان نيويورك ما فعلته لأجلهم [504] [505].

يقولون: إنَّ مدينة نيويورك متحجِّرة القلب، ولكنَّ سكان مدينة أوكلاهوما ربما لا يزالون يتذكَّرون المدرسة التي دُمِّرت ومات فيها (19) طفلًا [506]، هل يعنيكم هذا كله؟ إنَّه يعنيني، ولو أنَّ أهالي أولئك الأطفال طلبوا إليَّ أن أتوقف عن ملاحقة مَن قتلوا أطفالهم لفعلت ذلك؛ احترامًا لأحزانهم، ولكنَّني لن أتوقف أبدًا عن ملاحقة أي شخص يقتل أطفال الآخرين، ويجد سياسيين يتسترون على جريمته.

وهـا أنـا ذا الآن في طريقـي لأقـف أمـام القاضـي مايـكل موكاسـي، وأقنعـه بسـبب رفضي التخدير طوال السنوات العشر التي قضيتها في السجن – من دون محاكمة–؛ لأنَّني شاركت في تحقيقات الحادي عشر من سبتمبر، وحذَّرت آندرو كارد وكولين باول من كارثة غزو العراق.

يا لها من رحلة جوية تعيسة!

obeikan.com